

ملحق

الرعاية الدينية للعميان

نتناول موضوع الرعاية الدينية للعميان في ختام هذا الكتاب ، لأننا لا يمكن أن نكون في وضع يسمح لنا بأن نرى هذا الموضوع في تمام سياقه إلا إذا فرغنا من تناول العمى ودلالته .

يرى بعض الناس أن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله مع العميان من زاوية الدين إنما هو تقديسهم ، أو اعتبارهم قديسين . وهذا صحيح إذا قصدنا من ورائه أن الشيء الوحيد الذي يجب أن يفعله الدين بالشخص ، وبالتالي بالأعمى ، إنما هو أن يجعله قديسا . ولكنه يكون غير صحيح إذا قصدنا من ورائه أن الأعمى مدعو بصفة خاصة إلى القداسة دون غيره من بنى البشر .

ووجهة النظر الأخيرة هذه ليست من الدين ، وإنما هي خرافة . لأنها ليست خرافة صريحة أو مقصودة . ولكنها خرافة على كل حال ، خرافة لا تبتعد كثيراً عن خرافة القبائل البدائية التي غالباً ما توّله العميان ، معتقدة أنهم ، على نحو ما ، قبس خاص من الله^(١) . وكما هو الشأن في الخرافات بصفة عامة ، ترجع هذه الخرافة إلى مخاوف غامضة وانفعالات دفينية . يبدو الأعمى وكأن عنده قدرات تأملية لا يملكها الباقون منا . وربما لا تبتعد هذه الخرافة كثيراً في أصلها عن المعتقدات الجاهلة المتعلقة « بالعين الشريرة » .

ومع هذا المفهوم يسرى شعوراً بصدمة حين يقرّف العميان إنما

(١) يرجع ذلك في رأينا إلى انتهاء الأضداد إلى مقولة مما يتضح في مستوى الفئوى في كلفى « عجز » و « إعجاز » انظر كتابنا « الأنماط الانفعالية للمكفوفين » ، وبقاى السانسة (مكتبة الأنجلو بالقاهرة) . (المترجم) .

وهو شعور يفوق كثيراً في شدته شعور الصدمة عندما يقترف المبصرون الإثم . والصدمة إزاء الإثم ليست بالشئ الكوبه ولا شك إذا ما حدث إزاء « كل » إثم وليس إزاء بعض أشكال الإثم فحسب ، إذا ما كانت صدمة إزاء الآثام التي يقترفها كل الناس ، وليست فحسب إزاء الآثام التي تقترفها بعض الجماعات . (نشأ هنا صعوبات في التعريف ؛ فبعض أنواع « الصدمة » إزاء الإثم ليست نتيجة اتجاه متزن يبغض أى تعد على الله بقدر ما هي نتيجة اختلال عصابي وروحانية مضطربة) . أما الشعور بالصدمة إزاء آثام العميان والرضا بآثام غيرهم من البشر فليس إلا ضرباً من الخرافة .

والذين يتوقعون من العميان أن يكونوا أكثر طهراً من بقية البشر ، أحياناً ما يفصحون عما يستشعرونه حين يقترف أعمى إثمًا بخرقه للقانون الإلهي : « هاهم أولاد قد حرموا حاسة وهبها الله للباقيين منا . ألا ترى أنهم كان ينبغي أن يكونوا قريبين من الله قريباً يجعلهم ينجحون من هذا ؟ » وليس هناك من منطق خاص يوضح ما يحاولون أن يقولوه ؛ إنه يبدو أكثر منطقية أنه إن كان هناك فارق ما بين الجماعتين فإن العيب الأكبر ينبغي أن يكون علينا نحن المبصرين ، علينا نحن الذين وهبنا الله أكثر في مجال الحواس . وإنه ليبدو أنه إن كانت هناك صدمة أكبر إزاء آثام جماعة عما هي إزاء الجماعة الأخرى ، فينبغي أن تكون بالنسبة لنا نحن الذين أعطانا الله الكثير . ولكن ليس للخرافة من منطق خاص .

ومتى آمننا بأن النمو في القداسة يقاس بدرجة قدرتنا على المطابقة ما بين إرادتنا وإرادة الله ، فربما أمكننا القول بأن العميان جماعة عندهم « فرصة أكبر للبلوغ إلى درجة أعلى في القداسة ، نعم نستطيع أن نقول له ذلك مع تنبهنا إلى عوامل أخرى كثيرة » ، وذلك على أساس أن إرادة الله قد تطلبت منهم ما هو أكثر — فبالنسبة لهم يتضمن الخضوع لإرادة الله خضوعاً لإرادته

التي سمحت بإصابتهم بإعاقة مروعة متعددة الجوانب لم يتعرض لها الباقون منا .

ويقودنا ذلك مباشرة إلى سؤال آخر : ما هو الاتجاه الذى يطلبه الله إزاء هذه الإعاقة ممن يعانونها ؟ الكثرة الكثيرة من الناس يعتقدون أن عليهم أن يقللوا ويهونوا من شأن إعاقاتهم ، وإلا فإنهم لا يملون الخضوع الذى يطلبه الله . الكثرة الكثيرة يبدو أنهم يعلمون هذه الفكرة ذاتها للعميان : « انظروا إلى العمى بحسبان أنه ليس بهذا السوء الذى يبدو عليه : قولوا إنه عبء صغير . لا تفكروا فيه على أنه خطير ، وإلا ظهرتم بمظهر المنكر لإرادة الله » .

وإن هذا الاعتقاد الغريب بأن الله الحق يمكن أن يطلب منا إنكار الحق هو اعتقاد يصعب فهمه . فحينما تنكسر ذراع الواحد منا فإن الخضوع لإرادة الله لن يقتضينا أن نسمى ذلك أو نعتقد بأنه مجرد « التواء شديد ، - نوع من الشد العضلى فيما نظن » . وحين نعانى الألم فإن الله لا يتوقع أن الرضا بمشيئته ينبغى أن يجعلنا نقول أو نفكر أن ذلك ليس المأ فى الواقع - « نوع من الحكمة ، ضرب من الارتياح » .

وحين يصاب شخص بإعاقة العمى ، فلا ينتظر منه أن يقلل من وقع العمى (بأكثر مما ينتظر منه أن يبالغ فيه) : عليه بالأولى أن يقدر العمى على ما هو عليه ، فى دلالاته . فعندئذ فقط يمكنه أن يعطى معنى للقول : « أبانا ، لتكن مشيتك لا مشيتى » .

والمسيح فى آلامه لم يحاول أن يقلل من عذابه المروع . لقد صلى كما يتخلص من هذا العذاب : « يا أبى إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس » . وهذه الصلاة للأعمى كل الحق فى أن يرددها حين يحاول أن يتخلص نفسه من إعاقة العمى - باستعادة البصر بكل وسيلة أخرى متاحة - وحين

يحاول أن يحقق تعويضاً بكل وسيلة ممكنة عن فقدانات العمى حتى يجعل من العمى إعاقة أقل مما يمكن أن تكون عليه وفي النهاية مأوى المسيح ، كما يجب على كل معوق أن يحاول : « وفي هذا لن تكون مشيتي بل مشيتك » .

وحب الحق يقتضى أن ينظر الأعمى إلى إعاقته نظرة موضوعية كلما أمكن - متقبلاً في نفسه كل عبء العمى - ومقدراً في نفسه كيف أن كل طبيعته البشرية تتمرد على وجه بعد الآخر من أوجه العمى ، وكيف أن طبيعته ترفض وتنكر وتكره عمله .

فإذا ما أخفى الحقيقة على نفسه فغالباً ما يكتشف أن الرفض والإنكار والكراهية إنما تراوح في اتجاه آخر وأنها يمكن أن تنقلب متجهة ضد الآخرين ، أو متجهة ضد نفسه ، بل ومتجهة أحياناً ضد الله ،

أما إذا نما الأعمى حقاً في القدامسة ، وإذا ما كان عماء (حين يتقبله) أداة لهذا النمو - فعندئذ يمكنه ، في تقدمه نحو الله ، أن يصبح شكوراً على هذه الأداة « كثير هين وكعبء خفيف » من أجل المسيح . ومن الممكن في وضوح أن تتحقق الكراهية « الإعاقة » العمى مع الحب « لصليب » العمى .

ومشكلة وجود الشر الخلقى والمادى تجاهاً برمتها في مجال العمى مع العميان على نحو ما تجاهاً في كل احتكاك لنا بالأشخاص الذين يعيشون الألم أو الحرمان . ونفترح أن نهتد عن استخدام كلمة « الابتلاء » من حيث إن مدلولاتها تشير إلى القصاص ، ومن حيث إنها تتضمن أكثر من مجرد إرادة الله التي قضت بذلك ، ومن ثم فغالباً ما تؤدي هذه الكلمة إلى استنتاجات زائفة .

وهنالك الكثير من المفاهيم التي نحتاج إلى أن نستوضحها لأنفسنا

وللآخرين . فينبغي التمييز ما بين القداسة . الحقبة ومختلف أشكال القداسة الزائفة . فذلك « الاستشهاد ، الزائف » الذى يألفه كل أب اعتراف وكل موجه روى إنما نلتقى به بين العميان كما نلتقى به فى أى مجال آخره فالأعمى كالمبصر ممكن أن يلبس قناعا بحيث يجعل الناس يعتقدون أنه شهيد ، مستسلم تماماً لكل الضربات التى يكيلها له الدهر ، وهو فى نفس الوقت يفسخ لنفسه مكانا يسيطر منه على آلامه ، على كل من حوله بحيث يجعل كل أهل بيته يدورون فى فلك مشيئته . إن الشهيد الزائف يعمل على استئثار مشاعر إثم مروعة عند كل المحيطين به حين يسمحون لشكوكهم فى صدقه أن تقرب من السطح . ومع كل طفحة إثم جديدة يزداد الشهيد سيطرة وتحكماً أكثر فأكثر ، والشئ المربع (وهو حقا مربع ومروع) فى هذا الأمر أن الأعمى بصفة عامة لا يأتى ذلك عن وعى . إن الأمر يجرى بكليته تحت السطح إلى درجة أن « الشهيد » نفسه يكون مقنعا (ويكاد يقتنع) بإنكاره لذاته . فالاستسلام هنا أو التظاهر بالاستسلام ليس متولدا عن الحب ، ولكنه على العكس رداء يخفى كراهية مروعة . إنه استسلام يغتلى بالكراهية ويغذى الكراهية .

ثم نأتى إلى الانحرافات الاجتماعية والتمردات بأشكالها المختلفة . ونحن نحتاج هنا إلى أن نتعلم متى تكون هذه كلها مجرد إزاحة لإنكار الإعاقة والتمرد عليها . فالذنوب المرتكبة ضد الكنيسة والمجتمع وضد قوانين الزواج الإلهية - غالبا ما نستطيع أن نستكشف بين جنورها ذلك التمرد العميق ذاته (الذى ربما لا يعبه الأعمى وربما اعتقد أنه ليس إلا ضربا من « الاستئثار » أو شيئا من هذا القبيل) ونعنى التمرد ضد العمى الذى لم يتقبله صاحبه ؛ لأنه لم يلتق به مكتملا قط .

أما من الناحية الأخلاقية (ونعنى مسألة طاعة القوانين الإلهية أو الخروج عنها) فنحن نعلم بادئ ذى بدء بطبيعة الحال أن القوانين الإلهية ملزمة

للعميان والمبصرين على السواء ، وفي نفس الوقت نجد بين الظروف التي تغير من طبيعة الخطيئة (بما يزيد من الإثم أو ينقص منه) عدداً من العوامل المتصلة بالعمى وبالخيرات المتناقضة بسبب العمى . وسوف نتحقق من هذه الأمور بصورة أكثر اكتئالا متى عرفنا العمى ذاته بصورة أكثر اكتئالا .

وفيا يتصل بواجب العبادة الجماعية يوم الأحد لانستطيع أن نقرر قاعدة عامة ، فبعض العميان يعفون منها عادة لأنهم مرضى وملازمون للفراش ، وغيرهم يعفون منها لأن لديهم مشكلات عصبية خطيرة تجعل من المستحيل عليهم أن يذهبوا وسط الجموع . وغيرهم يعفون لأنهم يستشعرون خوفاً من الانتقال إلى حد أنهم لا ينتقلون قط إلى أى مكان ، ولكن هناك الكثيرين من العميان الذين يشاركون في المناشط العادية في المجتمع المحلي أثناء الأسبوع ، فهم يذهبون إلى العمل وإلى أماكن الترويح . من الخطأ للفادح أن نفى بصفة عامة مثل هؤلاء العميان من واجب العبادة الجماعية متعللين فحسب بالعمى وحده^(١) .

ونحن بحاجة إلى أن نعرف أيضاً كيف يختلف أى شكل من أشكال العبادة الجماعية بالنسبة إلى العميان اختلافاً « محسوساً » عما عليه الأمر بالنسبة إلى المبصرين . فنظام الأسرار الكنسية كله يكون المادى فيه رمزاً للروحى . وما يظهر للحواس يرمز لما يظهر للروح . فإذا لم نتأمل الأمر جيداً فمن الممكن أن تغيب عنا كثرة الاستنارات الموجهة إلى حاسة

(١) كل دراسة علمية يقينى أن تعتمد باللوعه ووعيه عن ذاتية الباحث واهتماماته الخاصة ، وإلا فإنه يقسم على العالم ما ليس من العلم فى شئ . من هنا كان خطراً اشتغال بعض رجال الدين بالباحث العلميه . (المترجم) .

الإبصار^(١) حيث الأشياء « المرئية » بمعنى الكلمة تتأدى بالمتعبدين إلى الأشياء غير المرئية . وإدراك هذه الصعوبة كان بالغ الأهمية في إعانتنا على التربية الدينية للأطفال العميان . فينبغي أن نهم بجعل كل شيء « ملموسا » أثناء عملية التربية هذه حتى يمكنهم أن يعرفوا ماذا يجري في وضوح تام ، وهذا مهم أيضاً عند تناولنا ، وعند تفهمنا لمشكلات الراشدين من العميان فيما يتصل بالخدمات الدينية :

وبالنسبة للكتب الدينية (بالإضافة إلى ما قلناه عن مصادر القراءة بصفة عامة في الفصل ١٣ والابتعاث ٨) ، ينبغي أن نكون على حذر فلا نشجع تعدد جمعيات النسخ « بالبراي » ، فهمتنا أن نزيد من تداول كتب « البراي » ، لا أن نعدد ونضاعف من نسخ الكتاب الواحد .

وفي هذا المقام يهمننا أن نعرف بين كتب « البراي » ، مقدار النسبة المثوية التي يكتب « الوحي » . أيتحمل أن بعضنا من هذه على الأقل يرجع إلى الخرافة التي تحدثنا عنها من قبل ؟ يبدو أحياناً وكأن بعض الناس نظروا إلى العميان وقالوا : « هذه جماعة تستطيع أن تفرض عليها القداسة » . فعند الرغبة في اجتذاب أناس إلى الله يوجد دوماً إغراء بمحاولة فرض القداسة عليهم . ولكن هذه المحاولة لا يمكن بحال أن تكون محاولة مثمرة . إننا قد ننجح في فرض مظهر القداسة على بعض الناس ، ولكن القداسة لاتأتي إلأاً من الداخل .

(١) وهذا يصدق بصفة خاصة ، كافي الطقس الروماني في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في الوقت الحاضر ، متى كانت لغة القداس غير مفهومة من الشعب . فن الصعوبة يمكن بالنسبة إلى الكاثوليكي المادى الأعمى أن يركز تفكيره على المذبح أثناء إلقاء القداس . فهؤلاء تم أفر لديهم مساعدة من كتاب صلاة القداس « بالبراي » ، من حيث إن نقل صلاة للقداس بالبراي يتطلب مجلدات يكون استخدامها غير عملي . ومن أجل ذلك فإن جماعة من القساوسة الكاثوليك المعينين للعمل مع العميان دون سواهم . أصدروا قراراً بمطالبة الأسقف بأن يلتزم من قداسة طلباً أن يصرح لهم باستخدام اللغة القومية في صلاة القداس .

إن مهمتنا هي أن نتيح للناس النمو (كما يشاء الله في الحق لهم أن ينمووا) وأن نهييهم لهم الفرص كما يتعلموا عن الله ، فنقدم لهم في كل مرحلة من مراحل نموهم معارف عن الله تلائم هذه المرحلة ، إن علينا أن نعينهم ونساعدهم بحيث يبلغون إلى الاستقلال عنا . علينا أن نحيمهم من مسالك الشر ، لا بين جدران البيت وإنما في العالم : علينا أن نحيمهم من الأذى الخلقى لا بأن نحول بينهم وبين النمو ، وإنما بالحري بتعليمهم أن ينمووا بحيث يختارون بأنفسهم الخير ويتجنبون الشر .

ذلك هو الشأن بالنسبة إلى الكتب الدينية للعميان . ينبغي أن نحاول بكل وسيلة أن نضع في متناولهم تلك الكتب الدينية التي تساعدهم على أن يعرفوا الله ويحبوه . ولكن لا يجوز لنا أن نحاول ما هو أكثر (ولا ما هو أقل) بحيث نجعل كل كتبهم دينية بحتة ، بأكثر مما يجب أن نفعل مع جماعة المبصرين .

إن العمى إعاقة متعددة الجوانب ، وعلى الشخص الذى يهتم بالنمو الروحى للعميان أن يعرف هذه الحقيقة ، وأن يحاول الحصول على أكبر قدر ممكن من المعرفة عن العمى حتى يمكنه أن يساعدهم . وفي بعض الأوقات سوف يكون عليه أن يطلب إرشاداً خاصاً من أولئك الذين تخصصوا لمزيد من المعرفة عن المشكلات الخاصة بالعمى . ليس في طبيعة العمى على أى حال ما يدعو إلى نقل الرعاية الروحية للعميان بعيداً عن الكنيسة العادية . والجمعيات الدينية الخاصة بالعميان هدفها أن تجعل الأعمى عضواً أفضل في كنيسته . والمعيار الصحيح لنجاح هذه الجمعيات والمبرر الحقيقي الوحيد لوجودها هو مدى ما تحققه في هذا السبيل .